



من سير أعلام الشهداء

أبو خالد السوري
رحمه الله



بسم الله الرحمن الرحيم

(أبو خالد السوري)

هادئ أديب، وقورٌ حصيف، إذا علمَ عمل، سلّمَ مِطْوَاع، رحمه الله أبُ خالدٍ الفلسطينيّ، نعم فلسطينيّ فهو من سُكّان مخيم حطّين بدمشق من أصلٍ فلسطينيّ، لكنه وكأبناء جيله وُلِدوا في الشّتات وعاشوا على حُ لم العِزّة والتحرّير، لكن أبَا خالد كان من أولئك الرّقير القليل الذين تربّوا على منهج السّرّف، وعلى سرّة رسول الله عقيدةً ومنهجاً. أقبلَ أبو خالد مع ذلك الرّكب المَهْمون، ركبُ أبي خلب، ومع الفارس المقدام والبطل الصّديد، والمقاتل المجرّب أبي حسن؛ ومع أنّ أبَا حسن أكبرُ سنّاً من أبي خالد، إلا أنّ هُ حسنةً من حسناته، فلمّا استشهد أبو خالد، رأيتُ أبَا حسن كأنّه فقدَ الدّنيا وما عليها، كان أستاذه وشيخُه وصديقُه، وموضِعُ سرّه ونصحِه، ولذا سكّبَ عليه الدّموع، وغمّ سَ نفسه في العدوّ مراراً، رجاءً أن يلحق بصاحبه لكن حكمة الله غالبه. جاء أبو خالد وجلس في بيت الشّهيد أبي عمر، وأقبل على إخوانه نصحاً وإرشاداً، ثم أخذَ دورةً مقتضبةً في المتفجرات والشّريك، وكان أبو خالد قدِمَ لعملٍ إداريّ ما، لكنّ فاتحني برغبة الشّديدة في عملٍ استشهاديّ، وذلك بعدما استقرّ في قلبه وعقله أنّ النّكاية به كبيرة، وأنّ الميدان ميّنت أنّها الصّوّت المسموع الذي يصمُّ آذان العدو، فلا يستطيعون لها كِتماناً، ولا لأثارها محواً، لكنّ أبَا خالد حلمي حِلاً تنوّ الجبال بحمّله، قال: "أنا أضعُ هذا الأمر في رقبتك، بحيث يكون الهدف فيه نكايةً للعدوّ، لا يمكن تنفيذها بغير ذلك".

ومضى أبو خالد يعبّد الرّاحلة ويتجهّز للسّرّ، أقبلَ على ربّ وتغيّرت ملامح الرّجل، فصار وجهه يضيء كأنّه قطعة قهر أو بريق فضّة، وعينيه تشعُّ بريقاً دافئاً وضياءاً، تقسّم لو رأيته أنّ للرّجل سرّاً مع ربّ أو عبادةً خاصة، أو أنّه يقبلُ على أمرٍ هيّاه له مَ ولاه، وكيف لا والرّجل جعل أنيسه وجليسه كتاب الله، يناجي مولاه، يطلب منه التّوفيق والسّداد، ويرجو منه البثّ عند اللّقاء.



وكان البيت مشحوناً بالشباب المهاجرين، فطلب مرّي رجاءً أن يذهب إلى بيتٍ يستطيع فيه الاختلاء بنفسه، فالوقت قصيرٌ والعبء ثقيل، فوعده إن تيسر لي ذلك، ثمّ عُدّت بعدما اجتهدتُ فاعتذرتُ له قائلاً: "يا أخي، هذه طاقتُك وطلبُك حقٌّ لكن اعدّ رني"، وعدّ رنا الرجل ومضى يمهّد الطريق لرحلته إلى مولاه، ويا لها من رحلة، ويا لها من أوقاتٍ، جاءنا أمرُ التنفيذ على هدفٍ مهمٍّ وطاقوت مجرم.

كان الهدفُ بيتاً يأتي إليه جنرالٌ كبير من الـ "سي آي أي"، ويكونُ فيه عددٌ من الجواسيس، وحينما يأتي تكونُ معه حراسةٌ مشدّدة، وتمّ رصدُ البيت وتحديدُ أسلوب العمل.

وكان اجتهدُ الإخوة نسفَ البيت بمن فيه من أمريكيّ وعملاءٍ ومعداتٍ ومستندات، وجهّز الإخوة لذلك سيّارة مفخّخة، وكان الهدف وحسب الاستطلاع يأتي إلى البيت تقريباً يومياً ويجلس ساعةً واحدة في البيت وينصرف، ويكون ذلك حسب مزاجه فليس له ميعادٌ معين على الأرجح.

فتهيّ أبو خالد، وتهيّ معه إخوانه مجموعة الرصد، وذهبنا في اليوم المحدّد، وانتظرنا الهدف من الساعة الثامنة صباحاً وحتى الخامسة عصراً، آخرُ موعدٍ لمجيئه ولكرّ لم يأت. ذهبنا في اليوم الثاني ونفسُ الأمر لم يأت، فقررتُ توقيف العمليّة حتى حين، لكن جاءت الأوامر بالاستمرار في المتابعة والترصّد بالهدف، وفي حالة جاهزيّة كاملة، بمعنى أن يبقى الأخ الاستشهادي ومجموعة الرصد والسيّارة في منطقة الهدف من الساعة الثامنة صباحاً وحتى الخامسة عصراً، وبالفعل ذهبنا في اليوم الثالث وانتظرنا ولم يأت الهدف، ورأيتُ أبا خالد قد بدا عليه التعب، وكنتُ أتألم جداً وأتعجّب من صبره وجلده.

فالرجل ينتظرُ في أية لحظة تأتي مجموعة الرصد وتقول له: بسم الله انطلق، فهو في كل لحظة يعيشُ مع الموت وهذا شديد. حتى نحنُ مجموعة التصرّد تعبنا من الانتظار، لا شيء إلا لأننا في حالة جاهزية قصوى وشدّة أعصابٍ وانتباهٍ كامل، نسأل الله الأجر والثواب. وفي نهاية اليوم الثالث تذكرتُ قولَ الرّي p في الحديث الذي رواه مسلم، قال رسول الله p: "رباطُ



يومٍ وليلةٍ خيرٍ من صيامٍ شهرٍ وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي يعمل، وأُجري عليه رزقه، وأمن الفلك".

فذهبتُ إلى أبي خالدٍ قائلاً: يا أبا خالد؛ أنشد، أبا الله إلا أن يرزقك أجر الرباط وأجر الشهادة، قال رسول الله ﷺ ...، وذكرتُ له الحديث، فوالله لقد رأيتُ الشَّير يطيرُ من وجه الرجل ويتهلَّ كأنما سُفَّت إليه كنزاً مفقوداً، وفرح بالحديث جداً، مع أن الرجل كان يحفظه، لكنني ذكرته به في موضعٍ هو في أمسِّ الحاجة إليه. ولهذا شرَّع الله الرِّصحة للعالم والمتعلم قال تعالى {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} فذكر غير علم.

وبعد أسبوعٍ من المراقبة علمنا أن الهدف لم يعد يأت، وغيرَ مكانه إلى موضعٍ مجهول والله الحمد المرق على كل حال.

تم تغيير الهدف، وقد تم رصد أول مركز شرطة يُخرب في العراق، وكان بؤرة فساد وإفساد، حيث يوجد في منطقة تشتهر بسبِّ أمنا عائشة رضي الله عنها جهاراً نهاراً، ناهيك عن الشَّيخين أبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما.

وكان ذلك مركز شرطة مدينة الصدر، والموجود بحي جميلة فتم رصد أكثر من مائة وخمسين حقيراً، ينتظمون في طوابير في ساحة المركز الساعة الثامنة صباحاً، وتم تحديد يوم الخميس للتنفيذ، فجاء لي أحد الإخوة يقول أجيل الموضوع ليوم السبت، لأن يوم الخميس يكون العدد قليلاً، وكان ذلك بحضور أبي خالد فقلتُ للأخ "لقد عزمنا على أمرٍ والله يرزقنا، ثم إن الغزو يوم الخميس جاء به أثر". وبالفعل ذهبنا للهدف، وقبل اقتراب الساعة من الهدف، ذهبنا لتأكد من عدد الموجودين منه، فوجدتُ العدو ضيقاً ما كان عليه، وأنهم اجتمعوا في هذا اليوم لقض الرّواتب، وكُنْتُ قلتُ لأبي خالد "إذا وصلت انتظر حتى آتي إليك وأقول ادخل"، فكأنه لم يفهم عليّ، وبينما أنا أمام مركز الردّة، إذ بمُرافقٍ من الإخوة يشيرُ إليّ ويجري نحوي "تعال تعال"، حتى لقد لفتَ إلينا الانتباه.

فجئتُ إليه أقول "مالك فضحتنا" فقال: "الأخ أمامك ذاهبٌ إلى المركز انظر"، فوجدتُ أبا خالد انطلق نحو المركز بهدوءه المعتاد، وكأنه في نزهة مع أهله وأولاده، فلم أراني أمام المركز ذهَبَ ودارَ دورةً كبيرةً ثم عاد إليه، وكنتُ قد رأيتُه متجهاً نحو الباب بادئ الأمر،



فلما ذهبْتُ بعيداً لم أسمع الصرّوت، فأصابني همٌّ وغمٌّ كبيرين لا يعلمُ بما إلا الله، وكان يقودُ السريّارة، الفارسُ المجهولُ والبطلُ الصنّديدُ سابقُ الذّكر، فحشّرنا، أن تكونَ السريّارة لم تنفجر، أو أن الأخ قُتِلَ قبل التنفيذ أو قبضَ عليه أو ...

فقلت للأخ "ارجع إلى المركز"؛ فقال : انتظر "شوي" ، ومن فرطِ توتري قلتُ: "ارجع وليكنْ ما يكون، وحتىّ نُدرك الأمر، فالأخ يُعرفُ عدّة بيوت لا بَدَّ من إخلائها إذا حصل مكروه، وبينما نحن في الطّريق إلى المركز، رأيْتُ كلَّ شيءٍ حولي يرقصُ إثر انفجارٍ ضخمٍ هزّ وانتزع كلَّ ما حوله، فجعلتُ تلك السِّلحة المشؤومة بمن فيها كأنها تنزور أو كأنها فوهة بركان.

وعلمت من مصادرنا الخاصّة بعد ذلك، أن عدد القتلى من الشرّطة بلغ مائة وستين قتيلاً غير الجرحى، ولم يُجربَ أحدٌ من المدنيين، لأنّ الأخ بارك الله فيه فجّر سيارته داخل الساحة تماماً في وسطهم، وعلى الرّغم أن الحراسة أمطرتُ بوابلٍ من الرصاص، إلا أنها كانت عليه برداً وسلاماً، فتابعَ سيّره ونفثَ هدفه، فرحمة الله على أبي خالد، وأسألُ الله أن يجمعنا به في جنة صدق عند مليكٍ مُقتدر، وأسألُ الله أن يخلّفها خيراً في زوجته وأولاده الثلاثة، فالله لا يُضَيّع أبداً أهل الشّهيد وهذا مُلامسٌ ومجربٌ، ومؤكّد فهو بعدّه في الغالب أحسنُ حالاً في الدّنيا من أيام عائلتهم، فما ظنك برَبِّ ضحّى لدينه مولاه.

وكان الشّهيد قد تركَ معي رسالةً لأهله، وأوصاني أن تكبُّ أهلي أيضاً رسالةً لزوجته تذكّرها فيه بالله، وأن الله لن يضيّعها، وأنّ مقاليدَ العباد بيده، قائلاً : "زوجتي صاحبُة فضلٍ ودين، لكنّ الزّوج له مكانٌ، وقد كان لي عندها مكانةٌ أخافُ على دينها أن تقولَ ما يُحبطُ به عملها لشدة حبّها لي"؛ فوعدني ذلك، والله يحفظُ أعراضنا وأولادنا من كلّ مكروه وسوء .

وكتبه

أبو إسماعيل المهاجر

● في اللّهجة العراقية تعني: قليلاً.